بحث في الأدب الشفوي
في سيدي خالد (ولاية بسكرة) ونواحيها
وعلاقاته بالأدب المكتوب التقليدي
لسيرة بني هلال

روزلين ليلى قريش

أثناء إعداد رسالة[1] حول القصة الشعبية الجزائرية، بدا لنا أن هناك عنصران رئيسيان ينبغي الاهتمام بهما لِمَا لهما من أهمية قصوى لجمع وتدوين للمرويات الخاصة بالأدب الشفوي والمتضمنة أقدم التقاليد البدوية. وهذان العنصران هما: الظروف الجغرافية والبيئة الاجتماعية. فالسهوب والصحراء وواحاتها من جهة، والمجتمع البدوي من جهة أخرى أو المتأثر بالبداوة أو الذي حافظ على تقاليدها في مختلف مراحل التطور الاجتماعي الذي تمر به المناطق القريبة من الصحراء، فهذا المجتمع وتلك المناطق تزخر بالمرويات الشفوية من النوع المذكور وهو أفضل ميدان يقدم لنا لجمع مادة غنية ومتوفرة.

لذلك اخترنا، للقيام بدراسة ميدانية، سيدي خالد ونواحيها المعروفة بـ «ناحية أولاد حركات». وفعلاً وجدنا أن المنطقة كانت تتمتع بخصوبة وغناء القصص الشعبي عموماً لِمَا تعكس وتستجيب المنطقة المذكورة للعنصرين المذكورين[2].

سيدي خالد واحة صغيرة ، جذابة وممتعة، تحتضن ضيفها وتكرمه. تقع في قلب السهوب القريبة من الصحراء وعلى ملتقى وادي جدي ووادي القليسي في ولاية بسكرة وعلى بعد 7 كيلومتر من أولاد جلال، مقر الدائرة. بقيت سيدي خالد زمناً

طويلاً في نهاية طريق غير معبد ثم معبد يتفرع من الطريق الوطني «بوسعادة ـ بسكرة» ماراً بالدوسن وأولاد جلال.

منذ قرون كان «نبيها» سيدي خالد الذي تشرف قبته على الناحية، وسوقها السنوي الذي يقام في 26 رمضان يجلبان الناس من تجار وشعراء وقصاصين؛ الكثير منهم ولدوا فيها: الشيخ السماتي بن يوسف، بن قيطون، بن زغادة وغيرهم الكثير ممن تغنّوا بجمال موقعها، وبعشاقها وتقاليدها الدينية والاجتماعية وأساطيرها[3]. لقد كانوا وما زالوا التعبير الحي الصادق لمجتمع هذه القرية. أما القصاصون القاطنون بالواحة أو المارون بها قادمين من وادي رتم أو من وادي يتّل، ثم وهم عائدون، فيشاركون في تأليف وإثراء كنز لا ينضب نبعُه من التراث الشفوي المحلي على مختلف أشكاله. وإذن فإن ذاكرة سكانها فقد حفظت لنا تراثاً قيّماً يحتوي على الشعر، القصة، الأسطورة والحكاية بمختلف أنواعها. أن هؤلاء السكان بكرمهم وطيبتهم يقدمون كنزهم الشفوي بكل سخاء للضيف المار الذي يتوقف للأستماع إليهم لِمَا يتمتعون به من مواهب في طريقة الرواية.

ومن الملاحظ أن في حلقات هؤلاء الشعراء الجوالين أو القصاصين نجد الشباب كما نجد أيضاً الكهول والشيوخ، وكلهم هواة للأدب الشفوي[4].

هذه الواحة الصغيرة هي أيضاً نقطة يلتقي فيها البدو وأشباه البدو، خصوصاً أولاد زكري العرش الذي يحوي أولاد ساسي وأولاد حركات، والذي يتنقل في مختلف مناطق سيدي خالد من قرىً ومراعٍ. فيجد هؤلاء الرُّحل في هذه الواحة كل ما يتعلق بتربيتهم وميولهم وأذواقهم أثناء مرورهم أو إقامتهم الطويلة أحياناً والقصيرة تارة أخرى. الكثير منهم استقرّ نهائياً بالواحة المذكورة وامتزجوا بسكانهابالنسب أو الجيرة أو غيرهما.

أما الدراسة الميدانية التي قمنا بها في هذه الواحة فقد كان الهدف منها في بداية الأمر القيام بجمع المرويات الشفوية عموماً. أي: تسجيل كل ما كان يُروَى مع التركيز على الرواة الذين يتمتعون بأساليب شيّقة تثير في نفس المستمع الرغبة في الاستماع إليه. أو بعبارة أخرى: كل ما كان يدخل في نطاق الأدب الشفوي الحي والمتداول في مجتمع ما.

وبعد أن مرّت ثلاث سنوات في هذا البحث الميداني(9) كان المجموع المسجل يتكون من 325 رواية من أنواع مختلفة: قصة عجيبة، دينية، خاصة بالحيوان؛ سلسلة طويلة من قصص حول «النبي» سيدي خالد ومعجزاته، وأخرى حول أبطال محليين. وأخيراً مجموعة من القصص الخاصة بالرواية الهلالية ومن أساطير مكانية من نفس الرواية. وقد سجلنا أيضاً في البحث الميداني نفسه ما دار بيننا من حوار كان موضوعه الحياة الثقافية والاجتماعية المحلية، وتراجم رواة القصص المسجلة، وثقافتهم الخاصة، وأصول أدبهم، ووسائل نقله ونوعيتها.

والجدير بالذكر أن جميع الاتصالات التي وقعت أثناء هذا البحث سمحت بجمع هام من الأمثال السائرة البدوية مع مفاتيحها. فهذه الأمثال التي تُستعمل باستمرار ـ وحتى في الحديث العادي ـ تخبرنا بالمستوى اللغوي المحلي، الغني والمعبِّر الذي تلونه الخصائص البدوية العريقة الأصيلة.

حينما وصلت الدراسة الميدانية إلى هذه المرحلة أي: مرحلة تسجيل المرويات، أخذ البحث ينحصر في نطاق خاص من الأدب الشفوي المحلي ألا وهو الخاص بالرواية الهلالية. أما السبب الذي عمل على هذا الانحصار فيرجع إلى الكشف عن 3 معايير خاصة بهذه الرواية أثناء البحث الميداني نفسه وكذلك أثناء كتابة المرويات ثم دراسة كل نوع من أنواعها المختلفة.

وكان المعيار الأول قد اكتشفناه أثناء تسجيل القصص، فهو الاعتزاز بالقرابة القبلية وصلة الرحم. وكانت الرواية الهلالية تثير هذا الاعتزاز في نفس الراوي والمستمع المحلي على حدٍّ سواء، هذا الإحساس الشديد يخلق روابط قوية تربط بين الرواية المروية ومستعمليها.

ثم إن دراسة أنواع القصص المسجلة عملت على إبراز معيارين مُقْنِعين لتفضيل الرواية الهلالية على غيرها. أولهما يوجد في الكشف عن عدة روابط روائية بين القصص الهلالية المحلية وسيرة بني هلال المكتوبة التقليدية.

أما ثانيهما فينبثق من تشابه ملحوظ بين البيئة القصصية الهلالية، والمَسْحة البدوية التي يمتاز بها ميدان البحث في حياته اليومية، فهذا التشابه يدفع الراوي باستمرار إلى أن يجعل قصته الهلالية في قالب آني، يحتفظ بموضوعاتها الهامة أو بذكرها على الأقل، لكنه يغيّر التفاصيل القصصية بتحويلها إلى حالة الحاضر فلا

يمكن لهذا التحويل أن يحوّر الإطار القصصي الأصلي نظراً لهذا التشابه الظاهر بينه وبين أسلوب الحياة المحلية على العموم.

فقد عمل هذان المعياران ومعيار الاعتزاز بصلة الرحم على تفضيل القصص الهلالية على غيرها من أنواع القصص الأخرى التي جُمعت أثناء البحث الميداني ـ ذلك لأن القصص الهلالية تعبر عن تجديد دائم لأدب شفوي يُعَدُّ من أقدم التقاليد البدوية. أما هذا التجديد فيمكن أن يصير لأن القصص الهلالية المحلية تحتل مكان الصدارة في نظر مستعمليها، رواة كانوا أو مستمعين. فيمكن القول بأن هذه القصص الهلالية المحلية، بكل ما تحتوي عليه من مغامرات وحكم، تمثل في نظر مستعمليها تاريخ أجدادهم الذي يسجل مجيئهم ثم استقرارهم في المنطقة.

أما اختيار القصص الهلالية لدراسة خاصة فقد فرض علينا دراسة جديدة وبحث أعمق. الأمر الذي أدّى بنا الى الرجوع الى البحث الميداني لجمع يتركز على هذا النوع الخاص من الأدب الشفوي وكذلك إلى دراسة متوازية حول ما كتب من سيرة بني هلال التقليدية.

أصبح البحث الميداني إذن يتركز في إعادة تسجيل كل قصة من القصص الهلالية المجموعة سابقاً عن راويها الأول ثم عن رواة آخرين حتى تتيح لنا فرصة المقارنة بين الروايات المختلفة والتمييز بين الثابت من المتقلّب، العام من الخاص الدائم من الاختياري في كل موضوع مروي.

المجموع الجديد المحصل عليه ينقسم إلى قسمين: قسم يحتوي على القصص التي تعالج موضوعاً بطولياً وقبلياً أو غزلياً (18 قصة وروايتها المختلفة). وقسم ثانٍ يجمع الأساطير المكانية التي نُسجت حول بقايا نُسبت لبني هلال (9 قصص وروايتها المختلفة). وتتراوح مدة تسجيل كل قصة بين 10 دقائق ونصف ساعة على شريط مغناطيسي.

أما الدراسة المتوازية حول ما كُتِبَ من سيرة بني هلال التقليدية فقد تركزت، في بداية الأمر، على إحصاء ما طُبع منها والكشف على مصادر طبعاتها المختلفة، ثم في مرحلة ثانية تبلورت الدراسة في فَهْرَسَة مضمون الطبعة التي كانت تعرض لنا الرواية الكاملة، أو بعبارة أصح، الأكثر كمالاً. فلذلك رقمنا موضوعات وموتيفات الرواية حسب سياق الحوادث وتسلسلها الزماني. ثم وبعد إتمام هذه

الفهرسة صنّفنا أهم الموضوعات وأهم الموتيفات، وكذلك مميزات أشخاص الرواية من الأبطال والشخصيات النموذجية فكوننا منها فِهْرِسْتاً تحليلياً. أما المجموع المكوّن بفهرسة الموضوعات المرقمة والفهرست التحليلي فيمثل أداة بحث سمحت لنا الدراسة المقارنة بين القصص الشفوي والنص المكتوب من أدب بني هلال في الميادين التالية: الموضوعي، البطولي والسيكولوجي[٥].

فقد تجلّت علاقة أكيدة بين الرواية الشفوية المحلية والنص المكتوب من الأدب الهلالي. وعلى ضوء ذلك لاحظنا أن أهم مواضيع المجموع من القصص الهلالية المحلية التي تنحصر فيما يلي:

- ذياب، مهارته، بطولته، مزاجه الذي يتجلّى في الشك، والحقد.
- الحب الذي تثيره الجازية في نفس العدو لتعرضه للهزيمة ولتمكن أبناء قبيلتها من الانتصار.
- الغرام بين ذياب والجارية ونهايته المأساوية (موت البطلة التي جرحت ذياب بكبريائها).
- التماسك القبلي الذي يوحد بني هلال ضد عدوهم الدائم وهو الخليفة الزناتي.
- تخطيط ذياب للحرب الذي يتمثل في بناء أبراج المراقبة، ومعرفته العميقة بأسرار الصحراء وحاسته البدوية.
- أهمية الفرس في حياة الفارس (ذياب في الغالب) وأهمية السيف والألعاب الحربية.

فإن الخاصية الغالبة الموجودة في هذا المحتوى تعرض لنا مواضيع وموتيفات وُجدت في الفهرسة والفهرست لسيرة بني هلال التقليدية.

وكذلك الأمر بالنسبة للمحاور الكبرى للقصص الشفوية المحلية، وأهمها:

- وصف مسيرة أو رحيل مستمر مهما كان موضوع القصة.
- الاجتماع تحت الخيمة (فطور أو مناقشة).
- هجوم العدو الذي يغ مواشي بين هلال والتي يرجعها ذياب دائما.
- اهتمام ذياب بمواشي بني هلال بمهارته الفائقة رغم أنه غير راضٍ عن رَعْيِها.

ـ ألغاز كثيرة يكشف عن معانيها البطل الهلالي (ذياب أو الجازية) بكل سهولة.

ـ إنقاذ الجازية (بفضل شجاعة ذياب) التي كان قد أسرها العدو.

فهذه المحاور تكوّن جوهراً قصصياً من السيرة التقليدية التي حفظها النشر منذ أكثر من قرن ونصف[٦].

فإذن يجب على كل باحث أن يتساءل ويقول: «كيف دخل القصص الشفوي الحالي ما حافظ عليه المكتوب منذ قرون (أنظر المخطوطات)؟».

أو: «ما هي الوسائل الاجتماعية الثقافية التي سمحت بأن ذِكْرَ هذا الأدب لم يزل حيّاً في هذا الشكل الخاص من الشفاهة الشعبية؟».

بدون شك توجد في هذا الحقل تربة خصبة للبحث والتنقيب. فدراسته تقدم بكل تأكيد بحثاً مثمراً يساهم في تطور تاريخ الثقافة الشعبية الوطنية وذلك من خلال التأثير الزماني والمكاني في تجديد الرواية الشفوية المحلية.

الهوامش:

(1) القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي ـ دكتوراه من الدرجة الثالثة ناقشتها في جامعة الجزائر سنة 1975. نُشرت سنة 1980، عن ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر.

(2) أدّى هذا البحث إلى إعداد رسالة دكتوراه الدولة ناقشتها في جامعة إيكس أن بروفانس (فرنسا) سنة 1986، طُبعت سنة 1989 في ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

(3) أنظر:

Ahmed LAMINE. La poésie populaire Algérienne à sidi - Khaled et dans sa région de 1850 à 1950 et ses relations avec le Patrinisme culturel arabo - Islamique, Thèse. Aixe en province

(4) والجدير بالذكر أنه قد انتشرت في سيدي خالد كما انتشرت أيضاً في القرى والواحات الأخرى من نفس النوع الوسائل السمعية البصرية كالراديو والتلفزة والسينما. غير أن هذا الانتشار لم يقضِ نهائياً على إقبال الجمهور على الاهتمام بالأدب الشفوي.

(5) مدة الإقامة في الميدان كانت تتراوح في هذه الفترة بين 5 أيام وأسبوع كل شهر ونصف أو كل شهرين.

(6) تتكون رسالة دكتوراه الدولة التي ناقشتها في ديسمبر 1986 والتي أشرت إليها في التعليق الموجود في بداية هذه المقالة، من الفهرسة والفهرست وكذلك من دراسة إحصائية حول النصوص المطبوعة لسيرة بني هلال ودراسة مركزة على الطبعات الأساسية للفهرسة.

(7) فإن الدراسة المقارنة المركزة على شكل القصص الشفوي تمثل موضوعاً واسعاً جداً فلا يمكن الكلام عنه في هذه المقالة.